

براعة الاستهلال في سورة العاديات

"قراءة أسلوبية"

*The Skillful opening in Sūrat al-‘Adiyāt
‘A Stylistic Reading’*

د. محمد بوهند*

جامعة مصطفى اسطمبولي-معسكر،

(الجزائر)

m.bouhend@univ-mascara.dz

تاريخ النشر: 2026-06-09

تاريخ القبول: 2026-04-14

تاريخ الاستلام: 2026-01-12

ملخص:

يحرص المتحدث الحاذق على أن يكون بدء حديثه متلائماً مع المقصود منه، وبذلك يتمكن من جذب انتباه السامع أو القارئ من خلال لفظة لطيفة تشير إلى مراده، ويعرف علماء البلاغة هذه المهارة بـ"براعة الاستهلال" وهي إحدى الظواهر البلاغية التي تكثر في الشعر والنثر، وكذلك في القرآن الكريم، لأنه جاء منسجماً مع أساليب العرب ومناهجهم في الاعتماد على التصريح أو التلميح. في هذه الإطلالة، حاولت استكشاف كيفية توظيف النص القرآني لهذه الظاهرة، ومدى إمكانية تحقيقها في فاتحة سورة العاديات، كما تم البحث في العلاقة بين آيات القسم -الذي يبدو غريباً في ظاهره- مع جوابه، وقد كان واضحاً أن مقدمة السورة تنسم بابتداء بلاغي رائع وتلميح دقيق، إذ تبدأ بجملة من الأقسام الفنية البليغة، مُلحَّحة أو مفصحة عن مقصدها الأسمى، ومحقة التناقص والانسجام من خلال قراءة أسلوبية للسورة في مستوياتها الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية، وبناء على ذلك خلصت إلى أن الغاية المنشودة هي: تذكير الإنسان بحاله مع ربه، وإظهار كيف يمكنه أن يستلهم من سلوك الخيل مع صاحبها التضحية والإقدام والإخلاص.

الكلمات المفتاحية: براعة، استهلال، العاديات، قراءة، أسلوبية، انسجام.

Abstract :

A skillful speaker is keen to ensure that the opening of their speech is in harmony with its intended purpose. In this way, they are able to capture the listener's or reader's attention through a subtle gesture that hints at their aim. Rhetoricians refer to this skill as "skillful opening" (ḥusn al-ibtidā' / barā'at al-istihlāl), and it is one of the rhetorical phenomena that frequently appear in poetry and prose, as well as in the Holy Qur'an, which came in harmony with the styles of the Arabs and their methods of expression, whether through explicit statement or subtle allusion.

In this study, I sought to explore how this phenomenon is manifested in the Qur'anic surahs and to examine the extent to which it is realized in the opening of Surat al-‘Adiyat. The research also investigates the relationship between the object of the oath—which appears, at first glance, somewhat unusual—and its response within the surah. It becomes clear that the introduction of the surah is marked by a remarkable rhetorical opening and a subtle allusion, as it begins with a series of eloquent, artistic oaths that implicitly or explicitly point to its supreme purpose. Through a stylistic reading of the surah at its phonetic, lexical, syntactic, and semantic levels, this opening achieves coherence and harmony. On this basis, the study concludes that the intended aim is to remind the human being of their state in relation to their Lord, and to show how one

may draw inspiration from the behavior of horses toward their owner—namely sacrifice, courage, and sincerity.

KeyWords: Skillful, Opening, Al-'Adiyat, reading, stylistics, Harmony.

*بوهند محمد

1. المقدمة:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، تحدى به فصحاء العرب وبلغائهم، فهيئات لبشر أن ينسج على منواله، أو يأتي بلغة تضاهي لغته، فقد جاءت تراكيبه وأساليبه في قمة البيان والجمال، فلا تشبيه يشبه تشبيهه، ولا استعارة تماثل استعارته، ولا إيجاز مثل إيجازه، بل إنه كما قال قائلهم: ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

وإن من أجمل ما في النص القرآني تلك الفواتح، أعني فواتح السور، وما تحمله من جماليات اللفظ والمعنى، وما تصفيه من تناسق وتنغم صوتي وتركيب وادلالي، وأخص ما في الفواتح براعة الاستهلال التي تظهر في قمة الجمال والبيان، والذي سيظهر من خلاله إعجاز القرآن في بيان وفهم مضمون السور القرآنية والتناسب الكائن بين فواتحها وخواتيمها، وقد يلحظ القارئ أنه مجال رحب لتدبر وتذوق جمالية النص القرآني.

إن المتدبر لجميع سور القرآن يرى هذا التعبير المعجز والتصوير الفني الدقيق لتلك الفواتح وتناسقها لفظاً ومعنى مع مضمون السور، منها ما يكون الاستهلال فيها ظاهراً لا يحتاج إلى بيان، ومنها ما يكون بحاجة إلى مزيد تأمل وتدبر للوقوف على ذلك التناسق بين الفواتح والخواتيم، ولا يمكن في هذا المقام التطرق إلى جميع فواتح السور، لذلك فقد أثرت الحديث على سورة يبدو الاستهلال فيها غريباً نوعاً ما، ولا يظهر التناسق بين فاتحتها وخاتمتها إلا بعد تدبر وتأمل، وهي سورة العاديات، وتظهر الغرابة في اختيار تلك الفاتحة المتمثلة في القَسَم بالخيل المهيأة للغزو والمتفانية في طاعة صاحبها، ثم الانتقال إلى الحديث عن حال الإنسان مع ربه وخالقه.

2. براعة الاستهلال:

1.2. مفهوم المصطلح:

"براعة الاستهلال" لفظ مركب يتحدد مفهومه ببيان مفهوم كل لفظ، وتُجمع المعاجم العربية على أن كلمة "براعة" تدل على التفوق والبروز وتماز الفضيلة سواء في العلم أو الجمال أو الخلق أو غير ذلك، قال صاحب اللسان: برع يبرع بروعاً وبراعة وبرع، فهو بارع: تم في كل فضيلة وجمال وفاق أصحابه في العلم وغيره، وقد توصف به المرأة، والبارع: الذي فاق أصحابه في السؤدد، ويقال برعه وفرعه إذا علاه وفاقه (الإفريقي، 1414 هـ، صفحة 08). ويفهم من كلمة "براعة" أنّ هذا الكلام والنص إنما حاز هذا التفوق والبروز لأن صاحبه اتصف بالذكاء والفطنة، والقدرة على إنشاء أو نظم كلام غاية في الفصاحة والبلاغة.

أما الاستهلال فهو مصدر للفعل الخماسي استهل، وهو طلب أول الشيء، ومنه استهلّت السماء وذلك في أول مطرها، واستهل المولود أي أول صوته حين الولادة، يقال: استهل الصبي: رفع صوته بالبكاء (أبادي، 2005م، صفحة 1072)، وبذلك يستدل على حياته، فسَمّي به الكلام الذي يدلّ أوله على المقصود.

وفي الاصطلاح، "براعة الاستهلال": هي كون ابتداء الكلام ملائمًا للمقصود، ويقع ذلك في ديباجة الكتب كثيرًا، فيشير المؤلف في ابتداء كلامه وتأليفه، والشاعر في مطلع قصيدته قبل الشروع في صلب الموضوع، بعبارة تدل على المزمع عليه إجمالاً (الجرجاني، 1983م، صفحة 45)، وتتجلى قيمة هذه الصورة الفنية في قدرة المتكلم على جعل أول كلامه حسنَ النظم، عذبَ اللفظ، جليّ المعنى، متضمنًا على لفظة لطيفة إلى المقصود (عبد الغني، د. ت.، صفحة 296).

وتعد براعة الاستهلال فرعًا عن حسن الابتداء (وقد فرع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال "حسن التوصل إلى صناعة الترسل"). وهو ما حسن مطلعهُ وجذب القارئ إليه مصغيا ومتطلعًا إلى ما يتبعه، فيكون الكلام حينئذ عذب اللفظ، حسن السبك، صحيح المعنى، وقد يسمى براعة الاستهلال إذا تضمن إشارة لطيفة إلى المقصود (الصعدي، 2005م، صفحة 708)، وإنما سمي به لأنّ الكلام الذي فيه هذه الميزة أصبح بها متفوقًا على غيره. وقد تتعلق البراعة بالتلميح إلى المقصود الأسمى من النص من بدايته، وإبداع يلفت الانتباه، ويأسر المتلقي سمعًا أو قراءة، مع حسن سبك، وعذوبة لفظ، وصحة معنى، وينبغي للمتكلم أن يجتنب في بدء كلامه المواجهة بما يسوء، أو بما يُتطير به، أو بما يُستكره لفظه أو معناه (الدمشقي، 1996م، صفحة 559).

وتقع هذه الظاهرة البلاغية في الشعر والنثر، حيث يقدم المصنّف في ديباجة كتابه أو الشّاعر في مطلع قصيدته جملة من الألفاظ والعبارات يشير بها إشارة لطيفة إلى موضوع كتابه أو قصيدته.

وقد أشار النقاد إلى أنه يحسن الإشارة في صدر الخطب إلى الغرض المقصود، وذكر الخطابي أن للكلام صدرًا واقتصاصًا وخاتمة، كما ذكر الجاحظ (ت 255 هـ) أنه يجب أن يكون في صدر كلامك دليل على حاجتك، وبيان ذلك حسب ما يراه الجاحظ: «فإن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته، وفرق بين صدر خطبة الزواج وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح، حتى يكون لكل نوع من ذلك صدر يدل على عجزه، فلا خير في كلام لا يدل على معنائه، ولا يشير إلى مغزاه، ولا إلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزلت» (الجاحظ، 1423هـ، صفحة 114).

وعلى قدر جودة حسن الابتداء وبراعة الاستهلال قد يبلغ صاحب النص خطبة كانت أو قصيدة هدفه ومبتغاه.

2.2. براعة الاستهلال في الشعر:

براعة الاستهلال هي إحدى بدائع الشعر العربي القديم، وقيمة تعبيرية متميزة في النوادي الأدبية القديمة كسوق عكاظ وغيرها، ولهذا تجد النقاد يثنون على حسن الابتداء في قصائد الشعر الجاهلي والإسلامي... وينبهون ببراعة الاستهلال والتناسب البديع بين تلك المطالع ومضمون القصائد على اختلاف الأغراض التي سبقت من أجلها... وقد اشترط النقاد في براعة الاستهلال، أن يكون مطلع القصيدة دالًا على ما بنيت عليه، مشعرًا بغرض الناظم، من غير تصريح بل بإشارة لطيفة تروق حلاوتها لدى أصحاب الذوق السليم، ويستدل بها على مقصده، من عتاب أو اعتذار أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجاء أو فخر أو غزل (الحموي، 2004م، صفحة 30).

ومن بديع ما يقف عليه القارئ بهذا الصدد، التزام الشاعر عز الدين علي بن الحسين الموصلبي (ت 789 هـ)، بأن يودع كل بيت من قصيدته التي عارض بها بديعية الصفي الحلي (ت 750 هـ)، اسم النوع البديعي الذي تضمنه، ولهذا جاء مطلع قصيدته على النحو التالي، مبرزاً قيمة براعة الاستهلال في القصيدة:

بِرَاعَةٍ تَسْتَهْلُ الدَّمْعَ فِي الْعِلْمِ *** عِبَارَةٌ عَنْ نِدَاءِ الْمُفْرَدِ الْعِلْمِ

وهي قصيدة نبوية من جنس البديعيات التي تسير على نهجها وزناً وروياً ومضموناً وأجزاء، حيث يرد كل بيت من أبياتها متضمناً لونا من ألوان البديع (عتيق، د. ت.، صفحة 59)، وقد استهل قصيدته باللون البديعي (براعة الاستهلال) مستعملاً اللفظ صراحة.

وقد سبق إلى هذا الكثير من شعراء الجاهلية وإن لم يصرحوا بذلك في قصائدهم، من أمثلة ذلك:

1. قول امرئ القيس في أول معلقته:

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ *** يَسْقُطُ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَخَوْمِلِ

قالوا: إنه في هذه البداية البارعة وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب ومنزله في مصراع واحد (الدمشقي، البلاغة العربية، 1996م، صفحة 560).

2. وقول النابغة الجعدي، حين وفد مع قومه على الرسول ﷺ سنة تسع للهجرة مسلمين، وكان سيذا فيهم،

وأنشد الرسول شعراً فأعجب به، وبدأ بهذه البداية التي قيل عنها: أحسن ابتداءات الجاهلية (العسكري، 1419هـ، صفحة 433) قول النابغة:

كَلَيْنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبٍ *** وَلَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيٍّ الْكَوَكِبِ

وقال ابن قتيبة (ت 276 هـ): لم يبتدئ أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب (ابن قتيبة، 1423هـ، صفحة 67)، وقد قدمه ابن المعتز وغيره لسلامته على قول امرئ القيس السابق الذكر (الدمشقي ي.، 1308هـ، صفحة 189).

3. قول أبي تمام يهنئ المعتصم بفتح عمورية، وقد بدأ قصيدته باستهلال بارع يرد فيه على مزاعم المنجمين الذين

زعموا أن عمورية لا تفتح في ذلك الوقت الذي تم فتحها فيه (الدمشقي ع.، البلاغة العربية، 1996م، صفحة 560):

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ *** فِي حِلِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي *** مُتَوَهِّجٍ جَلَاءِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

4. ولا يسع القارئ في هذا السياق إلا أن يذكر بعض ابتداءات أحد أفضل الشعراء العرب، شاغل الناس

بشعره والذي برع في أغلب أغراض الشعر، وقد كانت استهلالاته تشع بالحكمة، تلك الحكم التي صاغها

صياغة تعبر عما في نفوس من أحبوا شعره، قال في مطلع قصيدته التي يمدح فيها سيف الدولة ويصف

انتصاره على الروم:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ *** وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وَتَعَظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا*** وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ

جاء المطلع استهلالاً رائعاً وقد مهد به لموضوع القصيدة الذي كان الافتخار بالنصر المحقق ومؤكداً أن العزائم تكبر بقدر أصحابها، كما أن الفضائل العظيمة لا تصدر إلا من النفوس الكريمة.

3.2. براعة الاستهلال في النثر:

براعة الاستهلال في النثر فن من فنون البلاغة لا تقل أهميتها وجماليتها عن قيمتها في الشعر، ولذا فإن المصنف إن لم تكن براعة خطبته أو رسالته أو صدر كتابه دالة على الغرض الذي أنشئ من أجله المؤلف فليست من براعة الاستهلال، وتتجلى في قدرة الكاتب على الإشارة إلى الموضوع الرئيس للنص إشارة لطيفة والبدء بعبارات جذابة ومؤثرة تحمل القارئ على قراءة النص.

وتظهر براعة الاستهلال في الخطب مثلاً؛ بأن يبدأ الخطيب خطبته بآية قرآنية أو حديث نبوي أو مثل أو حكمة يرتبط ارتباط وثيقاً بموضوع الخطبة وينبه المستمع إلى مضمونها، أو أن يبدأ المؤلف مقالته بسؤال أو قصة أو معلومة تحمل تلميحا إلى موضوع المقال، أما في الكتب فقد تكون براعة الاستهلال عبارة عن مدخل أو مبحث يشرح أهمية الكتاب والغاية من تأليفه.

ومما استشهد به علماء البلاغة في هذا الشأن، قول صاحب عمرو بن مسعدة (ت 217 هـ)، كاتب المأمون، فإنه امتحن أن يكتب للخليفة يخبره أن بقرة ولدت عجلاً وجهه كوجه الإنسان، فكتب: الحمد لله الذي خلق الأنعام في بطون الأنعام (الحموي، 2004م، صفحة 40).

4.2. براعة الاستهلال في القرآن الكريم:

إذا نظر القارئ إلى فواتح السور رأى من البلاغة والفصاحة ما لا يقدر على بيانه، ووجد من التناسب والتناسق بينها وبين موضوع السورة ما لا يخفى على عاقل، وبراعة الاستهلال تجسد هذا التناسق والتناسب وقد أشار إليه علماء البلاغة والتفسير، حيث عقد السيوطي باباً في كتاب أسرار ترتيب القرآن سماه: مناسبة مطلع السورة للمقصود الذي سيق له، وذلك براعة الاستهلال (السيوطي، د. ت.، صفحة 38).

براعة الاستهلال في النص القرآني لا تختلف عما ذكر في الخطب والقصائد وهي أن يؤتى بما يشعر بالمقصود قبل الشروع فيه، حتى يدرك القارئ الغاية من وضع الكتاب، ويكون على دراية به قبل الشروع فيه، ولأن نظام التأليف يقضي بالآلافجى المؤلف قراء كتابه بالمقصود منه، بل يجب أن يمهّد له قبل الشروع فيه (شرف الدين، 1420هـ، الصفحات 13-14)، فكذلك الأمر بالنسبة للسور القرآنية فإن القارئ لأغلب هذه السور يرى أنها تبدأ بمقدمة غاية في البلاغة والجمال الفني مفصّحة ومعبرة عن مضمون السورة ومبينة للمقصود الأسمى منها.

ولهذا افتتح الله سبحانه وتعالى كتابه بالفاتحة وقد تضمنت حسن التمهيد وجمالية التقديم، وبهذا نالت شرف أن تكون مقدمة للكتاب وأم القرآن، قال السيوطي (ت 911 هـ): ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده (السيوطي، الإتيقان في علوم

القرآن، 1974م، صفحة 363)، حيث اشتملت هذه السورة على البسملة متضمنة اسم الله والثناء عليه بصفات الرحمة التي تفرّد بها دون غيره، وقد كان العرب، في الجاهلية يفتتحون خطابهم بقولهم: «باسمك اللهم»، فغير القرآن ذلك بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، واختص من الصفات ما يدل على رحمته للمؤمنين وللخلق أجمعين. وإذا كانت سورة الفاتحة قد تضمنت هي نفسها ما يدل على براعة الاستهلال، فإنها كذلك هي كالمقدمة للخطبة من النص القرآني ولأنها مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده، وهي بذلك تحقق براعة الاستهلال للقرآن، قال البيهقي في شعب الإيمان: «أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها أربعة منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان القرآن ثم أودع علوم القرآن المفصل ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة» (البيهقي، 2033م، صفحة 44).

وبيان اشتمالها على جميع علوم القرآن ومقاصده ذكر ذلك الزمخشري (ت هـ) لتضمنها الثناء على الله بما هو أهله، وعلى التعبد، والأمر والنهي، وعلى الوعد والوعيد، وآيات القرآن لا تخلو من هذه الأمور (الزمخشري، 1407هـ، صفحة 04).

وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة؛ فإنها بُنيت على إجمال ما احتواه القرآن مفصلاً؛ فقد وقعت في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه: أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله؛ ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق (السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، د. ت.، صفحة 51).

3. براعة الاستهلال في سورة العاديات:

التعريف بسورة العاديات:

سورة العاديات سورة مكّية، عدد آياتها إحدى عشرة آية نزلت بعد سورة العصر، سميت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، أخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال بعث رسول الله ﷺ خيلاً ولبت شهراً لا يأتيه منها خبر فنزلت ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (السيوطي ج. د. ت.، صفحة 215)، وقيل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ من عرفة إلى مزدلفة فإذا أووا إلى المزدلفة أووا النيران، و﴿الْمُغِيرَاتِ ضُبْحًا﴾ من المزدلفة إلى منى، وجميع آياتها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ (القرطبي ب.، 1986م، صفحة 67).

مفردات السورة:

العاديات: الخيل التي تعدو مسرعة.

الضّبح: صوت أنفاس الخيل حين الجري.

الموريات قدحا: هي الخيل تضرب بجوافرها الأرض، فتقدح ناراً، يقال: أورى الزناد، إذا أخرج النار على هيئة شرار.

المغيرات صباحا: خيل الغزاة تغير صباحا.

الإثارة: التهيج وتحريك الغبار.

النقع: الغبار.

فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا: توسّطت الخيل جمع الكفار ففرقته وهزمتهم.

الكنود: كثير الجحود والكفر للنعم.

لَشَهِيدٌ: يشهد على جحوده بأقواله وأفعاله.

الْحَيَّرَ: المأل.

لَشَدِيدٌ: كثير الحرص على المال.

بُعِثَ ما فِي الْقُبُورِ: أخرج ما فيها من الموتى للحشر والحساب.

وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ: وأظهر المستور في الصدور، وكشفت السرائر.

أقسم الله بخيل الغزاة حين تعدو وتضبح، والضبح صوت أنفاسها في صدرها حين يشد ركضها، وتصلح بحوافرها الحجارة فتنبعث من ذلك الصك نار، كل ذلك وهي تغير على العدو صباحا مثيرة الغبار من شدة العدو ومقتحمة جموع الأعداء غير مبالية بما تلاقيه من خطر الإصابة أو القتل، فلم تتردد ولم تتكاسل غير ساخطة على قائدها وسيدها الذي يدفع بها إلى المهالك.

ثم يأتي بعد ذلك جواب القسم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، وهو في ظاهره غريب عن سياق القسم الذي تضمن وصفا للخيل وسط المعركة، فجأة انتقلت السورة من الحديث عن الخيل داخل المعركة إلى وصف الإنسان وبيان حال مع ربه، لا شك أن الانتقال يبدو عجيبا غريبا! وكأن الله يريد من القارئ أن يعقد مقارنة بين الخيل وربها أي سيدها، وبين الإنسان وربه، فبعد أن أثبت تلك التضحيات التي تقدمها الخيول لأربابها وهي غير عاقلة ولا مكلفة، وفيها ما فيها من التضحيات الكثيرة والوفاء لسيدها، في حين أن الإنسان والذي نعم الله عليه لا تعد ولا تحصى، وصف بأنه "الكنود"؛ أي الساخط والجاحد والكفور بنعم الله، قال الحسن: الكنود اللوام لربه، يَعُدُّ الحن والمصائب وينسى النعم والإحسان (الطبري، 2000م، صفحة 576).

ووجه المقارنة أن الخيل تُضحى كل هذه التضحيات من أجل قائدها الذي إنما يكتفي بإطعامها ورعايتها، ولم يخلق لها لا السمع ولا البصر ولا الحوافر، ومع ذلك فهي تُظهر امتناها له بالإقدام على إهلاك نفسها وفاء له وطاعة له، ولذلك كان الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، لأنه قمة تضحية الإنسان بنفسه إرضاء لربه وأنه صفقة بين العبد وربه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبة، 111) وكان في هذه المقارنة تعريض من الله بالآدمي الكنود فكأنه تعالى يقول: إني سخرت مثل هذا لك وأنت متمرد عن طاعتي (الرازي، 2000م، صفحة 60)، أو تعريض من جهة أن الخيل -البهيمة العجماء- كانت أكثر وفاء لسيدها من الإنسان لربه، ودعوة إلى أن يجد الإنسان بنفسه في سبيل الله التي هي أعظم ما يملك شكرا لله وهو أعظم شكر يقدمه الإنسان لربه.

4. الانسجام بين الاستهلال وخاتمة السورة:

إذا أمعن القارئ النظر في هذه السورة رأى أنها تتكون من ثلاثة مقاطع، كل مقطع منها يعبر عن موضوع يختلف عن الذي يليه، لكن يمكنه في الوقت نفسه أن يكتشف ذلك التقابل الدلالي بين ثنائيات هذه المقاطع الثلاثة، والانسجام الدقيق بين معاني هذه المواضع وترابط دلالاتها.

1.4. المقطع الأول (المقسم به). القسم وما يتعلق به من صفات خيل الغزو:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۖ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۖ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۖ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۖ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۖ﴾

أقسم الله عز وجل بالخيّل، وكان من عادته سبحانه أن يقسم بأسمائه وصفاته أو الملائكة، أو الزمن أو ملكوت السماء أو القيامة... وهذه السورة الوحيدة التي أقسم الله فيها بالحيوانات، وفيه تصوير "لمشهد مثير، لغارة مفاجئة تصبح القوم بغتة على غير انتظار، والمباغتة، يلائمها قصر جمل الآيات وما تحمله من حسم، وسرعة الانتقال، وتتابع الأحداث ما بين العدو، وإشعال القدح، وإثارة النقع، إلى توسط الجمع، فما إن تعدو الخيل ضبحاً، فتغير صبحاً، حتى تكون قد توسطت جمع الأعداء في النقع المثار (بنت الشاطي، د. ت.، صفحة 106)".

وانتصب ضبحاً على أن يكون حالاً من العاديات إذا أريد به الصوت الذي يتردد في جوف الخيل حين العدو، فهو مصدر في موضع الحال: أي والعاديات ضابحة، أو يكون مفعولاً مطلقاً مبيناً لنوع العدو إذا كان أصله: ضبحت العاديات ضبحاً (الظاهر بن عاشور، 1984م، صفحة 499).

وفائدة لفظ "ضبحاً" أنها أزال التباس في دلالة لفظ "العاديات" بين أن يكون المقصود بها الإبل أو الخيل، لأن لفظ "عادية" قد يطلق عليهما معاً، لكن الضبح يجعل المقصود بها هنا الخيل لا غير، لاختصاصها بالضبح، وكذلك بقية السياق، فإن الآيات التي تلي هذه الآية ترجح ذلك، لأن الخيل هي التي تقدح بحوافرها النار وتثير الغبار وتقتحم جموع العدو وتغير عليهم، وهذا ما لا تفعله الإبل، التي هي في الغالب للسفر وحمل المتاع، قال الرازي: "واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة" (الرازي، 2000م، صفحة 61).

ولعل في الاكتفاء بذكر المفعول المطلق وحذف الفعل ما يتلاءم مع جو السرعة السائد في هذه السورة، الظاهر من خلال قصر جمل هذا المقطع وعطف بعضها ببعض بحرف الفاء الذي يدل على تعقيب الأحداث، الحدث تلو الآخر.

إن اختيار لفظ العدو دون غيره من الألفاظ التي تعبر على المعنى نفسه، كالجري أو الركض يعود إلى أن في العدو معنى التجاوز وهو معنى لا نجده في الجري الذي يدل على الاندفاع في السير وقد وصف الله به مخلوقات أخرى غير الإنسان والحيوان حيث ورد ذكره مع الشمس وأتار الجنة، والفلك وغير ذلك.

والعطف بالفاء بين هذه الثنائيات: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أي "الخيّل تقدحن بحوافرهن في الحجارة ناراً" و ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ أي "الخيّل تغير على العدو وقت الصبح" (الرازي، 2000م، صفحة 62) فيه ملحظ السببية وكأن كل وصف هو سبب لما بعده، فالإيراء هو أثر للعدو الشديد ينقدح به الشر من حوافر الخيل، والعدو والشر سبب

للإغارة على العدو، فضلا على أن العطف بالفاء والتي تفيد الترتيب والتعقيب فيه دلالة على المباغته ويؤكد ذلك الإغارة على العدو وقت الإصباح في "المغيرات صباحا".

وفي اختيار العطف بالفاء دون الواو التي تدل على المغايرة، الدلالة على أن الخيل التي وصفت بالعاديات هي نفسها التي وصفت بالموريات والمغيرات وبقية الأوصاف، ولو عطف بالواو لتوهم القارئ أن الخيل العاديات هي غير الموريات وهي غير المغيرات.

أما ما يتعلق بزمان الأحداث، فالمتتبع لسياق آيات العذاب والوعيد، يرى أنه يقع دائما في وقت الصباح، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ (الحجر، 66)، وقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود، 81)، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ (القمر، 38)، ذلك أن الصباح هو الوقت الملائم لجو مباغته الأعداء.

فضلا على التناسق الصوتي الذي تحدته فواصل هذه الآيات الثلاث فيما بينها إذ ختمت بالحاء المفتوحة، وهو الحرف المناسب لصوت الخيل حين تضبح، وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر الضبح بأخ أحم (الطاهر بن عاشور، 1984م، صفحة 498).

ويتتابع العطف بالفاء في ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ أي "المثيرة للنقع وهو الغبار" و ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي "الداخله في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة" (الرازي، 2000م، صفحة 63)، الملائم للجو العام للمباغته والسرعة في التنفيذ، " إذ ليس بين العدو الذي هو مرحلة الابتداء، واقتحام الجمع الذي هو ذروة الإغارة، إلا ما بين هذه الآيات القصار المتتابعة في تلاحق وترابط، وهي مع قصرها وتتابعها، تكشف بوضوح عن شدة الإغارة ووقع المفاجأة " (بنت الشاطي، د. ت.، صفحة 109).

فإن قال قائل: علام عطف الفعل "فَأَثَرُنَ" وليس قبله فعل؟ أجاب الزمخشري (ت 538 هـ) وغيره: عطف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه، لأنّ المعنى: واللاقي عدون فأورين، فأغرّن فأثرن فوسطن (الزمخشري، 1407هـ، صفحة 63)، لأنه قد يعطف الفعل على شبه الفعل كاسم الفاعل وغيره في نحو قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (الأنعام، 95)، وقد يقع العكس، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (الحديد، 18)، قال ابن مالك في ألفيته:

واعطف على اسم شبه فعل فعلا *** وعكسا استعمل تجده سهلا (ابن مالك الطائي، د. ت.، صفحة 48)

لكن، السؤال: لم لم يستعمل اسم الفاعل بدل الفعل؟ أي لم لم يقل مثلا: فالمثيرات نقعا، فالمتوسطات جمعا؟ والجواب أن الصفات الواردة في الآيات الثلاثة الأولى هي صفات ملازمة للخيل، فلذا عبر عنها بما يدل على الثبوت واللزوم (العاديات، الموريات، المغيرات)، أما الآيتين الرابعة والخامسة فهي أوصاف مرتبطة بالمعركة فقط وليست صفة ملازمة للخيل في أغلب أحوالها، لذلك استعمل اللفظ الدال على الحدوث والتجدد (أثرن، وسطن) والله أعلم.

النقع هو الغبار، لكن ليس كل غبار يسمى نقعا، بل ما تثيره الخيل في أرض المعركة، جاء في تفسير القرطبي: "﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ أي غبارا، يعني أن الخيل تثير الغبار لشدة عدوها في المكان الذي أغارت فيه" (القرطبي، 1954م، صفحة 158)، قال بشار بن برد:

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا **** وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ (بشار، 2007م، صفحة 202)

فقد جعل الشاعر المشهد ملحميا حيث يثار الغبار بطريقة كثيفة بين صفوف المقاتلين في مشهد يشبه الظلام فتختفي تحته الرؤوس، ثم تلمع السيوف وسط ذلك الظلام وكأنها نجوم تتلأأ، وبهذا يظهر سر اختيار لفظ النقع الذي يعبر عن شدة العدو والإثارة وكثافة الغبار.

2.4. المقطع الثاني (المقسم عليه): وصف الإنسان وارتباط ذلك بالمقسم:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿

لما أقسم الله بالخيال التي هي أشرف الحيوان كما أخبر بذلك النبي ﷺ: ((الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)) (البخاري، 1422هـ، صفحة 28) كان المقسم عليه من أشرف خلق الله مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الإسراء، 70) وهو الإنسان شرفه الله بما اتصف به من البيان، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (الرحمن، 01-04)، ثم وصفه بالكنود: وهو من اجتمعت فيه صفات الكفور بنعمة ربه، البخل المانع للخير، اللوام لربه، وهو في الوقت ذاته شهيد على نفسه بذلك لا يقدر على أن يجحده، مقرر بكنوده لربه من حيث لا يقصد الإقرار، وهو لحب الخير أي المال لشديد حريص وبخيل (الزمخشري، 1407هـ، صفحة 788).

جاءت الآية مؤكدة باللام المرحلقة وإن، واجتماع أداتي التوكيد يفيد الزيادة في التوكيد وهو من أقوى أنواع التوكيد، و"ال" في لفظ "الإنسان" تفيد جنس الإنسان، وكنود صيغة مبالغة يستوي فيها المذكر والمؤنث، يقال رجل عجوز وكذلك امرأة، واختيار لفظ كنود بدل كفور يعود لأسباب دلالية وهي أن في كنود تجمع ثلاثة معان وهي: الكفر بالنعمة والبخل بها ولوم المنعم، وهو ما لا تدل عليه كلمة كفور، فضلا على تحقيقها للتناسق الصوتي مع بقية الفواصل التي تليها والتي تنتهي بحرف الدال المسبوق بمد "كنود"، "شهيد" "شديد".

والمتتبع لصيغة "إن الإنسان" في القرآن الكريم يجد أنها تأتي دائما في سياق الذم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم، 34)، وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (الزخرف، 15)، وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (المعارج، 19)، وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ (العلق، 06)، وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر، 02)، وفي ذلك إشارة إلى أن جنس الإنسان إذا لم يتحل بالإيمان فإنه لا محالة سيتصف بخصلة مذمومة كالخسران والطغيان والكفر والظلم والهلوع.

وتقديم الجار والمجرور "لِرَبِّهِ" على متعلقه "لَكَنُودٌ" فيه دلالة التخصيص (عتيق، علم المعاني، 2009م، صفحة 141)، أي تخصيص جنس الإنسان بالكنود، وفي ذلك مبالغة في الذم، ونوع من التعريض بالإنسان الذي يقابل

إنعام وتفضل ربه المالك، والسيد، والمرئي والقيم والمدبر والمنعم بالبحود والتنكر واللوم أحياناً، في مقابل وفاء الحيوان لسيدته وتضحيتها بنفسه إرضاء له.

والضمير في "وإنه" في الآيتين عائد على الإنسان، وفيه شهادة الإنسان على نفسه بالكنود وإقرار بكفران النعمة، وهو ما تواترت به الآيات القرآنية كمثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ (فصلت، 19-20)، أما القول بأن الضمير في الآية: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ عائد على الله وفي الآية الثانية: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ عائد على الإنسان، ففيه ضياع للملحظ البياني الذي أقرته الآيتين بأن يكون الإنسان شاهداً على نفسه، وتزويق لوحدة السياق في عود الضمير تارة على الله وتارة أخرى على الإنسان (بنت الشاطي، د. ت.، صفحة 112).

ودلالة لفظ "الخير" على المال أو المال الكثير، يؤيدها تأويل هذا اللفظ في بقية النصوص كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا خَصَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ (البقرة، 08)، أما في قصة سليمان عليه السلام إشارة إلى أن الخير قد يراد به الخيل، قال الله تعالى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِنَادَ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (ص، 32)، والخير: المال النفيس، والخيل من المال النفيس، قال الفراء: الخير بالراء من أسماء الخيل¹، ولعل بهذا تظهر المفارقة في علاقة الإنسان بالخيل، فهو شديد الحب لها، بخيل بها، في حين أنها هي بالرغم من محبتها الشديدة لسيدها، لكنها تضحي وتجازف بنفسها طاعة له ووفاء لإحسانه إليها.

وتقديم ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ على متعلقه ﴿لَشَدِيدٍ﴾ للاهتمام بغرابة هذا المتعلق ولمراعاة الفاصلة (الظاهر بن عاشور، 1984م، صفحة 505)، وقد وظفت الآية ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ الأسلوب نفسه في التوكيد "إنَّ واللام المرحلقة"، للدلالة على شدة تعلق الإنسان بالمال وحبه له كما قال تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَمْالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر، 20)، لكنه حب مذموم لأنه سبب للفتنة والهلاك، كما أخبر سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن، 15)، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْبَالِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ (سبا، 37).

3.4. المقطع الثالث: التحذير من أهوال يوم القيامة، والعرض على العليم الخبير:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ

استهل الله سبحانه وتعالى هذا المقطع من السورة بالتهديد والوعيد، والاستفهام لإنكار مدى تجاهل الإنسان ليوم القيامة حيث يُبعثر ما في القبور ويُحصّل ما في الصدور، فلا ريب أن غفلة الإنسان عن ذلك شيء عجيب، والفاء في "أفلا يعلم" عاطفة، لكن علام عطفت الفعل يعلم؟ الظاهر أنها عطفت على مقدر يقتضيه المقام، يقدر بين الهمة والفاء، أيفعل ما يفعل من القبائح من كفران النعمة والبخل والحرص على الدنيا، ويتغافل عن حاله إذا بعثر ما في القبور (الألوسي، 1415هـ، صفحة 446)!

ومفعولا يعلم إما أن يكونا محذوفين مع عدم ظهور أي دليل في اللفظ على تعيين تقديرهما فيوكل إلى السامع تقدير ما يقتضيه المقام من الوعيد والتهويل ويسمى هذا الحذف عند النحاة الحذف الاقتصادي (الطاهر بن عاشور، 1984م، صفحة 507).

وإما أن مفعولا "يعلم" هما قوله في آخر السورة ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ﴾، أي أفلا يعلم أن ربه بهم يومئذ لخبر، جاء في روح المعاني: "وقرأ أبو السمال والحجاج «أَنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ» بفتح همزة أن وإسقاط لام التوكيد فأن وما بعدها في تأويل مصدر معمول يعلم كما بين ذلك بعضهم" (الألوسي، 1415هـ، صفحة 446).

والتعبير بـ"ما" التي لغير العاقل مع أن المخاطب هو الإنسان، راجع إلى أن ما في الأرض من غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب، أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك (الرازي، 2000م، صفحة 65).

البعثة قلب بعض الشيء على بعض، وفيه دلالة على التفتيش والكشف، وقد جاء الفعل مبنياً للمجهول، صرفاً للذهن إلى الحدث، وشد الانتباه إليه، ليتحقق الانتقال السريع من بعثة ما في القبور إلى الحساب العسير بتحصيل ما في الصدور (بنت الشاطي، د. ت.، صفحة 116).

وفي البعثة تمهيد لما بعدها "وُحْصِلَ مَا فِي الصُّدُورِ"، وقد جاء الفعل كذلك مبنياً للمجهول للغاية نفسها، والتحصيل هو الجمع والتمييز، وأصله من الحوصل والحوصلة والحوصلاء وهي من الطير كالمعدة للإنسان، ولعل في هذه المادة اللغوية ارتباط في معنى "حُصِّلَ" مع "فِي الصُّدُورِ" فكل ما يعمل به العبد مكنون في أعماقه، مبعوث في صدره، حتى يحين أو أن كشفه (بنت الشاطي، د. ت.، صفحة 117)، والقرآن يستعمل لفظ الصدر للحديث عن المستور والمضمر من أعمال الخلق، فالله سبحانه وتعالى عليم بما في صدور عباده، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (عمران، 154)، ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت، 10)، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (النمل، 47)، فالعالم بما في الصدور في الدنيا قادر على تحصيل ما فيها وكشف ما انطوت عليه وإظهار ما أخفته الضمائر.

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ﴾ الخبير صفة من صفات الرحمن، وهي غير العليم، والخبرة من اختبر الشيء أو الشخص، فحصه وامتحنه ليعرف حقيقة أمره (الإفريقي، 1414 هـ، صفحة 227)، وبهذا يعد الخبير أخص وأبلغ من العليم، فهو الذي يعلم بواطن الأمور وخفاياها، جاء في المقصد الأسنى: "وهو بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى خفايا الأمور سمي خبرة، وسمي صاحبها خبيراً، وهو الذي لا تغيب عنه الأخبار الباطنة فلا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة أو تسكن ولا تضطرب نفس أو تطمئن إلا وخبرها عنده سبحانه" (الطوسي، 1987م، صفحة 103)، وبذلك يظهر التناسق في اختيار هذا الاسم مع تحصيل ما في خفي في الصدور مما لا يعلمه إلا الله ولا يطلع عليه إلا هو سبحانه.

لقد عد العرب براعة الاستهلال دليلاً على ذكاء المتحدث وفطنته في الإشارة إلى موضوع كلامه إشارة لطيفة وهو الأمر الذي لم يجد عنه القرآن الكريم لأنه نزل بلغتهم وسار على أنماط حديثهم، وإن كان فيه ما أعجزهم، وبراعة الاستهلال في القرآن الكريم أنماطها مختلفة فقد تبدو ظاهرة يكشفها القارئ لأول وهلة، وقد يحتاج بيانها مزيداً من التأمل والتبصر، ومن هذا النوع ما ابتدأت به سورة العاديات، والتي مزجت بين الحديث عن الخيل ابتداءً ليس له نظير، ثم أتبعته الحديث عن الإنسان في صورة تظهر نوعاً من المقابلة بين سلوك الخيل اتجاه سيده وسلوك الإنسان اتجاه ربه، وقد أتاحَت القراءة الأسلوبية لهذه السورة الوقوف على التجانس والانسجام في مستويات التحليل الأسلوبي الصوتي والمعجمي والتركيبى والدلالي، وخلصت هذه الدراسة إلى ما يلي:

- تكمن براعة الاستهلال في كون ابتداء الكلام مناسباً للمقصود، ومتضمناً لفئة لطيفة إلى ذلك.
- تظهر البراعة إبداعاً يلفت الانتباه ويأسر المتلقي سمعاً وقراءة متجنباً بدء كلامه المواجهة بما يسوء، أو بما يُطير به.
- يشترط في مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه مشعراً بغضير الناظم من غير تصريح بل بإشارة تروق حلاوتها لدى أصحاب الذوق السليم.
- براعة الاستهلال في النص القرآني لا تختلف عما ورد في الشعر والنثر، وهي أن يؤتى بما يشعر بالمقصود قبل الشروع فيه، فالقارئ لأغلب السور يرى أنها تبدأ بمقدمة غاية في البلاغة والجمال الفني مفصحة ومعبرة عن مضمون السورة ومبينة للمقصود الأسمى منها.
- سورة الفاتحة هي مطلع القرآن لأنها مشتملة على جميع مقاصده، وجميع القرآن تفصيل لما أجملته، ولهذا فهي بمثابة براعة الاستهلال بالنسبة إلى القرآن كله.
- ابتداء سورة العاديات بالحديث عن خيل الغزو ثم الانتقال إلى الحديث عن شيء انفردت به هذه السورة عن جميع سور القرآن الكريم.
- هذا التقابل في مدح الخيل ثم ذم الإنسان كأن فيه تعريض بالإنسان الكنود ودعوة إلى الاقتداء بالخيل في تضحيته وتفانيه.
- قصر آيات السورة تحمل دلالة المفاجأة وسرعة الانتقال، وتتابع الأحداث ما بين العدو، وإشعال القدح، وإثارة النقع، إلى توسط الجمع، ويؤكد هذه السرعة الاكتفاء بالمفعول المطلق (ضبحاً، قدحاً، صبحاً) دون الفعل، ثم عطف بعضها ببعض بحرف الفاء الدال على التعقيب.
- ثم إن العطف بحرف الفاء بين الآيات الأربع الأول، فيه ملحظ السببية وكأن كل وصف هو سبب لما بعده، فالإيراء هو أثر للعدو الشديد ينقدح به الشر من حوافر الخيل، والعدو والشر سبب للإغارة على العدو، كما يحمل الدلالة على أن الخيل نفسها قد صدرت عنها جميع هذه الأفعال.

- تضمنت الآيات تناسقا صوتيا إذ ختمت فواصلها بالحاء المفتوحة /حًا/، وهو الحرف المناسب لصوت الخيل حين تضبح، وقد فسر الضبح بأخ أُخ.
- أقرت السورة في موضع (فأثرن به نقعا) حكما نحويا يقضي بجواز عطف الفعل على شبه الفعل كاسم الفاعل وغيره، حيث عطف الفعل (أثرن) على اسم الفاعل (المغيرات).
- وظفت السورة اسم الفاعل فيما دل على صفات ملازمة للخيل، للدلالة على الثبوت والازم (العادات، الموريات، المغيرات)، ووظفت الفعل فيما دل على صفات متجددة مرتبطة بأرض المعركة فقط (أثرن، وسطن) للدلالة على الحدوث والتجدد.
- اختيار صيغة المبالغة "كنود" دون "كفور" لأن في الأولى تجمع ثلاث معان ليست في الثانية، وهي: الكفر بالنعمة والبخل بها ولوم المنعم.
- إن تتبع لفظ "الإنسان" في النص القرآني يجده دائما مرتبطا بسياق الدم، وهو الأنسب في سياق هذه السورة والملائم لوصف الكنود.
- في السورة تعريض بالإنسان الذي يقابل إنعام وتفضل ربه المالك والمنعم بالجحود والتنكر واللوم أحيانا، في مقابل وفاء الحيوان لسيده وتفانيه في سبيل إرضائه.
- وظفت السورة أقوى درجات التوكيد "إنَّ واللام المزحلقة"، للدلالة على شدة جحود الإنسان ونكرانه، وشدة تعلقه بالمال.

6. المصادر والمراجع:

- الإتيقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط: 1394هـ - 1974 م.
- أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، د ط، د ت.
- ألفية ابن مالك، أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجبائي، دار التعاون، ص48، باب عطف النسق.
- بغية الإيضاح للتخصيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط17: 1426هـ - 2005م.
- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني دمشقي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط01: 1416هـ - 1996م.
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت

- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، د ط: 1984 هـ.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، دار المعارف - القاهرة، ط 07: د ت.
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تح: أحمد محمد شاكر
- الجامع المسند الصحيح "صحيح البخاري" محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 01: 1422 هـ، حديث رقم.. (2850)
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط 2: 1384 هـ - 1964 م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزاري، تح: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، الطبعة الأخيرة 2004 م.
- ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية. بيروت، د ط: 1415 هـ.
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تح: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ط 1: 1423 هـ - 2003 م.
- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، د ط، 1423 هـ.
- الصبح المنبي عن حيثة المتنبي، يوسف البديعي الدمشقي، المطبعة العامرة الشرفية، ط 01: 1308 هـ.
- الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية - بيروت، د ط: 1419 هـ.
- علم البديع، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، د ط، د ت.
- علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 01: 1430 هـ - 2009 م.

- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط8: 1426 هـ - 2005 م، مادة (هلل).
- الكافي في البلاغة، أيمن أمين عبد الغني، دار التوفيقية، القاهرة، د ط، د ت.
- كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تح: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط01: 1403 هـ - 1983 م.
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، العلامة جابر الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت، د ط: 1407 هـ.
- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، د ط، د ت.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، دار صادر - بيروت
- مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت ط01: 1421 هـ - 2000 م.
- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تح: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي - قبرص، ط01: 1407 هـ - 1987 م.
- الموسوعة القرآنية، خصائص السور، جعفر شرف الدين، تح: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية - بيروت، ط1: 1420 هـ.
- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تح: د. عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط01: 1406 هـ - 1986 م.